لاجئة ...

قصة بقلم الدكتور بديع حقي

مدت يدها المعروقة الهزيلة ، الى صدرها ، واخذت تبحث بأصابعها المرتجفة عن شيء أخفته ثمة ، فلما ألفت بأنـه لا يزال حيث وضعته ، أطلقت زفرة حارة عميقة ، ثم عاودت البحث كأنها فرقت ان يضيع منها ، واخرجته فاذا هو شمعة هزيلة قصيفة ، وحاولت ان تتقرّاها في النور الاصفر الكابي المنحدر من احد المصابيح الكهربائية التي تستشرف الطريق ، فلم تستطع ان تستبين شيئاً ، فقد كانت ضعيفة النظر ، وكانت هذه المصابيح المحنية الاعناق كرؤوس بلهاء لا تبذل في هذه الليلة الحالكة إلا اشعة وانية ، بيد ان اصابعها لا تخونها في اللمس ، فالشمعة لا تزال صحيحة لم تنقصف ، ومقام الشيخ عثمان القريبي ينتظرها ليفتح لها ابواب السماء ، فلديها في هذه الليلة دعاء طويل طويل .

واستنشقت الهواء ملء صدرها ، فقد احست بالتعب يتمشّى في جسمها المهدود ، بعد ان سارت قرابة ساعة ، من حي الميدان الى سوق ساروجة مشياً على قدميها في خطى بطيئة متزايلة ، لتضع هذه الشمعة في مقام الشيخ عثمان ، فلقد قيل لها انه يقبل النذور ، ويستجيب للدعاء والرجاء حين تهز اليد قضبان النافذة التي يجثم الضريح قريباً منها .

واستندت الى الحائط ، لتصيب قليلا من الراحة ، وقد قبضت على الشمعة بجماع يدها ، كأنها شيء ثمين تحرص عليه ، وكان نسيم الخريف يهينم رقيقاً عليلاً ، فيجذب ملاءتها السوداء اليبسة ويعبث بمنديلها الخلق المهترىء .

وتناهى الى سمعها غناءٌ نديٌ يتعالى قريباً منها مشفوعاً بسباب بذيء ، وسمعت صوتاً يقول : « مساكين هـؤلاء اللاجئون» وصوتاً آخر يوافقه ويعقّب عليه ، فانقبض صدرها ، غير انها ظلت ترهف اذنيها . لا شيء سوى عواء كلب يرتفع بعيداً ، وخاطبت نفسها متعجبة :

— حتى الكلاب هنا لا تعوي ككلاب حيفا !

وسمعت خفق اقدام يقترب منها ، فانفرجت شفتاها عن صوت حاولت ان تجعله عالياً مسموعاً ، ولكنه خرج متقطعاً خفيضاً .

— قل لي يا اخي بالله عليك ، هل تعرف ضريح الشيخ عثمان ، هل هو بعيد عن هنا ؟

وتأدّى الى سمعها الجواب :

— على بعد عشرين خطوة ، يا خالتي .

فتنفست الصعداء ، وتابعت سيرها الوئيد ، ثم مدت في خطاها قليلا لتستعجل فرحة الوصول .

★

وقفت ام خليل امام ضريح الشيخ عثمان في توقر وخشوع ، ومد مصباح هزيل النور رأسه فوق النافذة كأنه عين طلعة تود ان ترى كل من يقف امام الضريح ، وخفق الى قربه علم اخضر ، منتسف اللون ، وضع ثمة دلالةً على قداسة صاحب الضريح .

وتلت ام خليل الفاتحة في صوت اقرب الى الهمس ثم بسطت راحتيها داخل النافذة ، فأحست بالدفء يشيع في يديها ويسري في اعطافها وحسرت عن وجهها ، واجالت عينيها في ارض النافذة فرأت شموعاً كثيرة تشتعل ذبالاتها وتستوفي انفاسها الاخيرة ، وخامرها في تلك اللحظة شعور غامض حزين، فقد حزرت ان الشخص الذي وضع هذه الشموع هو لا ريب ذو سعة ويسار ، بمكنته ان يشتري شموعاً كثيرة وان ينذر اشعالها في مقام الشيخ عثمان لحاجة مقضية له او يطلب قضاءها من بركة الشيخ .

لقد حرمت نفسها من لقمة العشاء ، لتشتري هذه الشمعة الوحيدة بعد ان نذرتها للشيخ عثمان ان شفيت حفيدتها زينب من ذات الرئة ، وهي اليوم تفي بنذرها، فقد اعلمها الطبيب بان الخطر قد زايلها ، ولكنها بحاجة الى عناية ، وقد ملأتها هذه البشرى اغتباطاً فلتذهب للوفاء بنذرها سريعاً .

وإنها لتتقدم ايضاً من الشيخ عثمان ، برجاء جديد فلعله يحققه لها . وتساءلت في قرارة نفسها ، ترى أيهزأ الشيخ في قبره من تفاهة شمعتها فلا يستجيب لدعائها ولا يوصله الى السماء ؟ واكربها هذا الخاطر وأخافها فقد وضعت في هذه الشمعة الصغيرة كل امانيها ، ولكنها غمغمت في صدق عفوي ساذج :

— آه يا شيخ عثمان ، لئن عاد ابني من فلسطين لأشعلن من اجلك مئة شمعة كبيرة .

وأعاقها عن الترسل في دعائها صوت شحاذ مقعد ، اتخذ مجلسه على حيد الرصيف المقابل ، وكان إلى جانبه طفل يهوّم من النعاس ، ثم يستفيق لوكزة من المقعد حين يلمح الأخير شبح عابر ، فيرفع صوته بالاستجداء ويضم دعاءه الى دعاء المقعد .

لعلها فلسطينيان مثلهما ، فان لهجتها تذكرها بلُغَيَّةِ شحاذي حيفا .

ولم تكن ام خليل قد اشعلت شمعتها بعد ، فمدت يدها المرتعشة بالشمعة وقلبها يجف ، وأخذت تحاول اشعالها بلهب إحدى الشموع ، ولكنها أحست بحرقة شديدة في اصبعها ، وندّت عنها صيحة الم . وسكّ سمعها قهقهة طفل الشحاذ المقعد وهو يرى ولا ريب الى حركة يدها الوجيعة فنظرت اليه نظرة زاجرة وبصقت كانها ترد عليه ، ثم أعادت محاولتها في اشعال الشمعة حتى تيسر لها ذلك بعد لأي ، فشعرت بارتياح ، وامسكت بقضبان النافذة فهزتها هزاً متداركاً خفيفاً ، وقد التاثت خواطرها وتفرّقت ، وتركت شفتيها تتمتمان في بساطة وسذاجة :

— يا شيخ عثمان ، كما شفيت لي زينب ، رد لي ابني خليل ، ألهمه ان يعود إلي ، اهمس في اذنه بانني في دمشق ، اسكن غرفة حقيرة مظلمة رطبة مع ابنته الصغيرة زينب ، قل له بانها كانت مريضة جداً بالحمّى ، وإنها نجت بفضلك يا شيخ عثمان ، ولكن بالله عليك لا تقل له إن زوجته قد ماتت ، في خيمة بعيدة تائهة ، وهي تضع طفلاً ميتاً .

وأمسكت ام خليل عن الدعاء ، واستعرضت بذهنها ذكرى ماضية مؤلمة لا تفارق مخيلتها . تذكرت كيف غادرت حيفا مع كنتها الحبلى وأخيها وحفيدتها زينب التي لم تكن تعدو الخامسة من عمرها ، وتذكرت خيمة مضروبة بين خيام اللاجئين ، وخديجة ممددة والى جانبها قابلة خرقاء بلهاء لا تعرف كيف اتوا بها ، لقد وضعت خديجة طفلاً في الشهر السابع وجاء ميتاً ، ثم لحقت به امه اثر نزيف عنيف ، اجل لقد اودى بها الرعب والبرد والتعب .

وقفزت إلى خاطرها ذكرى حفيدتها الصغيرة زينب فوق قبر امها التائه المظلل بشجرة زيتون : اي قبر دفنت فيه ! لقد كان سوىً من الاحجار المبعثرة ، لا شاهدة تنم عنه . او تدل عليه .

— الله يرحمك يا خديجة ، كنت زوجة صالحة ، وكنت تحبين زوجك ابني خليل ، لا تحبينه اليوم ، الله يسامحك يا خليل ، لقد ابيت ان تأتي معنا ، مطمئناً إلى اننا في امان ان هربنا مع اخي فبقيت في فلسطين لتحارب مع جيش الانقاذ ، لتحارب اليهود ، الله يخرب بيت اليهود .

ورددت الجملة الاخيرة ، في اسى وحرقة ، وهبت الريح اكثر عنفاً وشدة ، فأطفأت بعض الشموع ، وتراقص لهيب الشمعة التي وضعتها ام خليل ، حتى كاد ان ينطفىء .

— لا يزال ابني هناك ، في فلسطين ، يا شيخ عثمان ، لا تقل له إن زوجته قد ماتت فهو لا يعلم ذلك واخشى ان يقتله الهم والحزن ان تأدّى اليه هذا الخبر .

لقد قيل لي ان ابني قتل ، ذكر لي ذلك بعض الجنود العائدين الذين عرفونا . انني لا اصدق ذلك يا شيخ عثمان . ان ابني اسير لدى اليهود ، فقد قال لي جندي واحد فقط عائد من الميدان إنه يظن ان ابني اسير . اجل لا اصدق يا شيخ عثمان بانه قد قتل . انني اراه دوماً في حلمي ، يخاطبني بانه سيعود قريباً ولكن متى ؟ آه يا ربي ، لقد مرت سنوات اربع وانا في دمشق ، اسأل واستفهم ، دون يأس ، فلا القى جواباً .

واستعرضت في ذهنها ، هذه السنوات الأربع كيف مرت طويلة ثقيلة مظلمة ، مع اخيها وحفيدتها . كان مع اخيها عشر ليرات انكليزية ذهبية هي كل ما استطاع حمله وهو يهرب من حيفا . وقد آثر اخوها الاقامة في دمشق ، فلعله يجد فيها عملاً ، ولكنه كان شيخاً ضعيفاً متهدماً ، فذابت الليرات العشر ، ليرة بعد ليرة ، ثم مات بعد ان استجدى سنة واحدة ، اما هي فقد اضطرت الى مزاولة مهنة غسل الثياب . انها مهنة شاقة ، ولكن ، ماذا تفعل ؟

— آه يا شيخ عثمان ، لقد ملت الانتظار وراء الابواب ، ابواب مكاتب لا ادري ما اسمها ، في سبيل اللقمة ، واهترأت تلك البطاقة التي كنت احملها ، آه لولا هذه الطفلة ، ولولا انني انتظر عودة خليل ، لاستسلمت الى الموت دون أسف ، لقد خدمت حتى خارت قواي ، وضعف بصري من الشيخوخة ، ولعله من البكاء ، غير انني اخاف على زينب الصغيرة . ساعدني على حمايتها ، فلا معيل لها سواي . لقد عرض علي ابو حمزة مؤجر الغرفة التي اسكن فيها ، ان تذهب زينب لتستخدم مدى

خمس سنوات بمئتي ليرة سورية لدى تاجر من حمص ، يريد خادمة لاجئة بثمن بخس . لا ، لا اريد ان استغني عن زينب ، ليتيسر لي دفع خمس عشرة ليرة سورية اجرة غرفة ابي حمزة عن ثلاثة اشهر ماضية . ماذا يقول لي ابني ان عاد ولم يجد ابنته معي ؟؟

وكانت مآقيها قد امتلأت بالدموع الغزيرة ، فسالت على مسارب وجهها ومسحتها بكمها ، وأثارت نظرها الى شمعتها فاذا هي قد شارفت نهايتها ، وتذكرت ان عليها ان تسيرساعة او تزيد ، وحفيدتها مريضة او شبه مريضة . لقد كانت تود ان تدعو وترجو وتتكلم ، ولكن شمعتها نفدت سريعاً ، كما انها نسيت كثيراً مما تجمع في خاطرها قبل ان تأتي . ونظرت حواليها فرأت الطريق موحشة واحست بلذعة البرد ، وصافح اذنها صوت الشحاذ المقعد يستجدي في لغيّة شحاذي حيفا (من مال الله يا محسنين) ، ومدت يدها الى جيبها فلم تجد سوى قطعة نقود بخمسة قروش وتقدمت بأناة وبطء فوضعتها في كفه المنبسطة دون ان تحفل بدعائه وانكفأت راجعة ، كما اقبلت بطيئة ، مهدودة القوى ، ورأسها يلتهب بالذكريات الماضية .

اجافت ام خليل باب الغرفة الصغيرة الحقيرة ، فنسمت في انفها رائحة العفونة ، وتهالكت على الوصيد ، متعبة ، مرتهكة المفاصل ، ولمحت قريباً من القنديل الصغير القابع فوق كرسي خشبي ، حفيدتها زينب وهي غارقة في نوم عميق ، فنهضت متثاقلة الخطى ، وتقدمت على رؤوس اصابعها ، حتى دنت منها ورأت الغطاء الرقيق وقد انحسر عن كتف الطفلة الغافية ، فسوته بيد مرتجفة ومرّت اناملها فمست برفق جبين الطفلة فإذا هو ينضح بالعرق الغزير ، ثم قربت شفتيها فقبلت وجنتها بحنان فألفتها حارة كأن الحمى قد عاودتها .

وتناهى الى اذنها سعلة شديدة وأنّة ممتدة طويلة ، وافترّت شفتا الطفلة عن هذه الجملة :

— آه ! انا اموت .

وتململت الطفلة في فراشها ، وخفق قلب العجوز في عنف ، وتساءلت وهي ترقأ دمعة منحدرة من عينها : ترى أجدعها الطبيب بقوله انها قد شفيت ؟ لقد حملتها الى عيادته منذ ثلاثة ايام وانتظرت امام الباب ، في اليوم المخصص للفقراء ، ساعتين قبل ان يأتي دورها . لقد قال لها الطبيب بعد ان فحص الصغيرة جملته المأثورة المعروفة — يجب ان تعيد الدواء نفسه .

ثم ربت على كتف الصغيرة وطمأن العجوز بان الخطر قد زال .

لا ، انها لا تزال مريضة ، فالسعال لا يزال يمزق صدرها الصغير ، والحمى لا تفارقها . وترادفت في ذهنها خواطر سود مخيفة ، فحدثت نفسها : لعل الشيخ عثمان لم يقنع بشمعة واحدة ، فهو حانق مغيظ .

ولكن ليس لديها دراهم لشراء اكثر من شمعة واحدة ، فان عليها ان تشتري الدواء غداً وسيتبقى معها ليرة واحدة فقط ، للأيام المقبلة ، حتى تجد عملاً لدى الجيران أو في الحي القريب المجاور .

وظلت ام خليل ساهدة ، مؤرقة الجفن ، وكانت تقترب من الطفلة كلما فاجأها السعال ، وتصغي في قلق وفزع الى نفسها الضعيف المتردد ، وتجتر شفتاها دعاء طويلاً .

وتمنت ان ينبلج الفجر بسرعة ، لتجلب الدواء ، وفكرت انه من الافضل ان تخرج باكراً ، قبل ان يأتي ابو حمزة ليطالب باجرة الغرفة المتراكمة ، ويكلمها بشأن الصغيرة . لقد اتى البارحة وعرّض بقصة استخدام زينب لدى التاجر الحمصي ، — مئتا ليرة يا ام خليل ، لمدة خمس سنوات فقط . انه مبلغ جيد ، وستعيش زينب ثمة مرفهة كأنها في بيت اهلها .

اجل لقد ادركت القصد من سعيه المتواصل ، انه يتوقع (بقشيشاً) من التاجر ، وسيتيسر له ، عدا ذلك قبض اجرة غرفتها عن ثلاثة اشهر ، آه من هذا الملعون .

لقد اجابته :

— وإذا عاد ابوها ، ولم يجدها فماذا افعل يا ابو حمزة ؟

— ماذا تهذرين يا ام خليل؟ « صارت عضام ابنك مكاحل ».

ثم اردف مستهزئاً : اطلبي الى رئيس اليهود بفلسطين ان يعيده اليك .

آه ، انها لا تستطيع ان تنسى هذه الطعنة القاتلة : « صارت عضام ابنك مكاحل » ، يوم يعود ابنها خليل ستعرف كيف ترد على هذا الملعون . سترفض هذه الصفقة ، ولو ادى الأمر بها الى التسول . ستطرق كل باب وتستجدي كما فعل اخوها من قبل ... وشعرت بان هذا المصير قريب ، فإنها لم تعد تقوى على غسل الثياب والخدمة ، هذا العمل الذي تزاوله منذ ان قدمت الى دمشق .

وفكرت لو ان خليل علم بان ابنته مريضة لبادر فاخترق الحدود مسرعاً ، رباه كيف السبيل الى اعلامه ؟

واصابت إغفاءة قصيرة وهي تجاذب هذا الخاطر ، وكانت

وكانت احلامها تقفز بين ضريح الشيخ عثمان ، وحفيدتها وهي تتململ على الفراش والسعال يمزّق صدرها وابنها وهو يعود اليها باسماً منطلق الاسارير .

ولما استيقظت عند الفجر من غفوتها المبتسرة ، ألفت ان صغيرتها لما تزل نائمة ، فارتدت ملاءتها ووضعت طرحتها على رأسها باضطراب ، وخرجت مسرعة من البيت ، وظل فكرها مشغولاً بهذا السؤال :

— كيف السبيل إلى إعلام خليل بمرض ابنته حتى يعود ، أيستطيع الشيخ عثمان ان يلبي رجاءها ؟

وشعرت في تلك اللحظة بان املها المعقود على الشيخ عثمان قد انتسخ ، فلا شمعة ولا مئة شمعة تكفي الشيخ عثمان ليلهم ابنها ضرورة العودة . وفكرت : لو ان ابنها قد تلقى منها رسالة تعلمه فيها بان ابنته مريضة وانها في خطر، لعمل المستحيل حتى يعود .

ولما وصلت الى السنجقدار كان هذا الخاطر قد استحوذ على خيالها .

— اجل ، سأبعث اليه برسالة ، فلعلها تصل اليه .

هناك ، قرب مديرية الاوقاف تعرف (عرضحالجي) تستطيع ان تستكتبه ما تريد . ان في جيبها ليرتين سوريتين، ليرة لكتابة الرسالة وثمن الظرف ، وليرة اخرى للدواء . لا ، سيرضى العرضحالجي بنصف ليرة . ستلح عليه كثيراً حتى يقبل ، ثم ماذا ؟ يكفيها ثلاثة اسطر او اربعة .

ووقفت امام العرضحالجي ، وكلمته واستعطفته ، لقد رضي اخيراً بنصف ليرة ، وافرحتاه .

وداف العرضحالجي ريشته في المداد ، ونظر اليها من موق عينيه نظرة نافدة الصبر ، ليكتب ما تمليه عليه ؟

الى ابني الحبيب خليل النابلسي حفظه الله آمين

بعد تقبيل الوجنات ابدي يا ابني ان ابنتك زينب مريضة جداً وهي تنتظر مجيئك ، فلا تتأخر علينا .

وتوقفت ام خليل لحظة فقد تذكرت ان ابنها خليل لا يعلم بان زوجته قد ماتت واردفت :

زوجتك خديجة تسلم عليك ، لقد وضعت طفلاً يقبل يديك هو وزينب

امك المشتاقة

ام خليل

وتابعت في لهفة وسذاجة : اكتب العنوان على الظرف :

الى رئيس اليهود بفلسطين — حيفا

« دخيلك » يا رئيس اليهود ، سلم هذه الرسالة الى ابني خليل النابلسي ، من المحلة الشرقية بحيفا ، واتركه ليعود الى ابنته فهي مريضة جداً » .

ونظر اليها العرضحالجي وهي تغمغم كلماتها الاخيرة نظرة رثاء واستنكار ، وفغر فاه عن عجب ، وقد ارتسمت على شفتيه ابتسامة غبية بلهاء .

دمشق — **بديع حقي**

المعجم

موسوعة لغوية علمية فنية

تأليف : العلامة الشيخ عبد الله العلايلي

يصدر تباعاً شهرياً

فمن اراد الاشتراك فليتصل بوكلاء الدار

تونس	: المكتبة العربية الشرقية	السيد محمد خوجه
بغداد	: المكتبة العصرية	السيد محمود حلمي
دمشق	: المكتبة العربية	السيد احمد عبيد
بيروت	: دار بيروت للطباعة والنشر	محمود صفي الدين

الناشر دار بيروت للطباعة والنشر